غزل المتنبي

خليل شيبوب

يجوز لنا ان ننعت بعض الابواب من الشعر كالمديح والرثاء والهجاء بانها موضوعية الى حدّ ما لان الشاعر ينظر فيها الى ممدوحه او الى خصيمه ليقول ما فيهما حيناً وما ليس فيهما احياناً ما . اما الغزل في الشعر فانهُ ذاتي محض لان الشاعر ما لم يكن مقلداً او سارقاً لا يمكنهُ ان يعرب الاَّ عن شعوره الخالص فيسبغ على قرائنهِ فيض احساسه وقرارة نفسه

والشاعر غَزِلٌ بطبيعته لانهُ مرهف الحس متسع الخيال . وهما جناحان يحلق الشاعر بهما في سماءِ الفن . ومن كان كالمتنبي جامح العبقرية، صعب الشكيمة ، دائق النفس كان لابدَّ ان يتروق سواءه في افتتانهِ بالمرأة التي تظل المثل الاعلى للجمال في هذه الدنيا لانها هي الجمال بمختلف صوره ومعانيه التي تزهر فيها الحياة فتخاطب العقل والقلب والدم وتتحد فيها اغراض الحياة جميعاً

ولا اعرف في غير آداب اللغة العربية تقسيماً للشعراء يتناول جزئيات الشعر من الجهة الفنية . فبينما يقال ان شكسبير روائي وهوميرس قصصي تراك تقول هذا شاعر غزل مثل عمر ابن ابي ربيعة او مدّاحة نوّاحة مثل ابي تمام او هجّاء مثل دعبل او وصّاف مثل ابن المعتز او ما شاكل كل ذلك من النعوت التي تعد من تفاصيل الشاعرية العامة لأن في الرواية او القصة غزلاً ومدحاً ونوحاً وهجاءً ووصفاً، وقد يجيد الشاعر الموهوب القصة والرواية معاً او يجيد هذه ولا يجيد سواها

واذا نظرنا الى المتنبي على ضوء التقسيم العربي نخطئ اذا قلنا انهُ غزل او مدّاح او هجّاء او وصّاف لانهُ كل هذا بل هو فوق هذا كله لانهُ شاعر الحياة فهو اذن من كبار شعراء الانسانية

ان هذا الرجل الفذ الذي نبت في الطبقة الدنيا اذ كان ابوه يبيع الماء بالكوفة حدثتهُ نفسهُ ان يدّعي النبوة وان يطمح الى الامارة فعاش عيشة الجد والاستكبار متطلعاً الى غرض سامٍ اراد تحقيقه من طريق النبوّة ثم قذف به من حالق فعمد الى الشعر يتخذه وسيلةً حتى اذا فاته ذلك الغرض عاش اسمه بهذا الشعر في درجة الخالدين من الانسانية . وها هو بعد الف عام من وفاته يقيم الشرق ويقعده . وتعقد لهُ الحفلات في كل بلد . وتخصص لهُ اعداد الصحف الدورية وغير الدورية فاذا كان قد فاتتهُ الامارة في عصره فانهُ بلغ امارة الشعر على العصور . واذا لم يحكم على الاجسام بسيفه وسطوته فقد تحكم في العقول والنفوس بعبقريته وقوافيه

وطالما سألت نفسي ما كان يجري لو بلغ المتنبي مأربهُ من الولاية او الامارة . أتراه يبقى على

عبقريته الشعرية لم يجد به تحريف آلة تحكم عن الادب والفن ام يتمشى به الترف الى الميوعة والتراخي ؟ وهو سؤال لم اقنع نفسي بأي رد عليه الى اليوم ... ولكنني اميل الى الاعتقاد بأنه لم يتم ذلك لأنه لما انقلب بساط التاريخ وجد ابن الرومي دهراً . ولا رجع اسمه بأبي تمام والبحتري ولا شغل الناس عن الشريف الرضي ومهيار الديلمي وابن حمديس وجميع من جاء بعده الى الحد الذي شغلهم به عنهم

وقد اجمع المؤرخون على ان المتنبي كان كثير الجد في حياته . قويم الخلق لا يميل الى لهو ولا الى دعابة . واكبر الظن انه لم يكن يمزح بل لعله لم يتبسم الدعابة والمباسطة . وكم تصورته في مخيلتي رجلاً عصبياً . عابس الوجه . مرير الطبع . منقبض القلب في معيشته مقيماً لكل حديث وزناً لا همّ له الا كسب الاموال . وبلوغ المعالي . وسبق الاقران . واثارة الاعجاب بنفسه عند الذين يحيطون به . ومن كان كذلك لا بد له ان يتجانف عن اللهو والمزح ويصدف عن مجالس الشراب الا اذا اضطر اليها ويكبت ميله الى تخمانه اذ كان العرف السائد ان العشق اذا طغى على قلب الرجل ذهب به كل مذهب . ودفع به الى الاستهتار بجد الامور . وقعد بهمته عن جلائل الاعمال . ولا يتفق هذا لمن يطمح الى امارة وزعامة

لم تذكر التراجم العربية عن المتنبي هوى اختص به امرأة بعينها ولكننا نقرأ له كما نقرأ لسواه شعراً يعرب فيه عن شغفه بالنساء وتشوقه الاطلال وتفجعه من الوداع وما يلحق بهذا من وصف الحي ومنازل الحسان وسكب الدموع شوقاً . ونحول الجسم هياماً . وما اشبه ذلك من مألوف الغزل الذي دان به الشعر العربي قروناً طويلة

تلك هي النظرة العجلى في ذلك الغزل المتفشي في تضاعيف القصائد . ولكن القارئ المتريث يلاحظ في ثنايا المعاني اتجاهات خاصة اذا انعم النظر فيها انجلت له مبادئ المتنبي الغزلية — اذا جاز هذا التعبير — فميز من شعره ما كان فيه مقلداً وأخذ بما هو ذاتي جديد صادر عن شعور عميق صادق . وليس شعر المتنبي للاستدلال بالبحث فيه على الذاتي منه وغير الذاتي . لانه صاحب اغراض خاصة . ومعان متسلسلة مبتدعة لم يسبقه اليها من تقدمه ولم يلحقه فيها من تأخر عنه لفقدانه الحاجة اليها بفقدانه اغراضهم وان كان المتنبي لتناول النادرة الحسنة فيتوسع فيها الى ابعد غايات الحياة من مشاعر كل عصر . واغراض كل جيل . حتى يتزين بها من سبقه ومن لحق به

ولا بد هنا من الاشارة الى ان ديوان المتنبي فريد بين الدواوين القديمة بكونه مبوباً على الطريقة الحديثة لان قصائده متسلسلة التنسيق تبعاً لسني النظم والانشاد لا لابواب الشعر وحروف الهجاء . وعلى الرغم من ان بعض ما نسب منها الى نظمه ايام صباه لا تقنع بصحة موقعها من الديوان الا ان ذلك التنسيق يساعد كل المساعدة على تتبع المتنبي في اطوار شبابه ونضوجه واكتهاله

* اجل لقد اشتهر كثير من الشعراء بغرام خاص حفظ التاريخ اسم صاحبته امثال ابي نواس وجنان

وابن الاحنف وغيرهم وقبلهم عشاق العصر الاول الاسلام ولكن المتنبي لم يشتهر بحب امرأة بعينها فهل كان ذلك مجرد مصادفة ؟ . . . لا اظن ذلك كذلك بل اظن ان مرضه بحب الامارة جعله يستنكف اقتران اسمه باسم امرأة ربما عيره بها اعداؤه وان تغنى بحب الجمال وانتسب الى زمرة العشاق ابان صباه الاول تبياناً لرجولته وتركيزاً لسامعه انه لم يكن عزهاة ممتنعاً ؟ هذه الصفة منقصة لشعوره . فالمسألة خلقية قبل كل شيء ولعلها الى جانب هذا تدخل في طبيعة المتني لان شعره يدل على انه كان غزلاً ملتهب العاطفة الا انه كان عزوفاً عن مواقف التخصيص فهو من الفريق الذي يسميه الفرنجة «دون جوان Don Juan» — ولعلّ لفظة عِشّيق (بكسر العين والشين المشددة) لا زير نساء تؤدي معناها — فهو تستهويه المرأة الجميلة كيفما عنّت له ولا يتيم بحب واحدة او اثنتين بل يعشقهنّ جميعاً ويصبو اليهنّ جميعاً وهذا الطراز من المحبين يأخذ بالصورة الماثلة التي تثير العاطفة وتستفز نوابض القلب ولا يهمه ما وراء هذه الصورة ولعله لا يطيل التفكير بها لأن كل صورة اذا لم تمح سابقتها فهي تضعف تأثيرها بلا ريب

وقد ابدع المتنبي يصف نفسه في مواقف غزله بما ينطبق كل الانطباق على تعريف هذا الصنف من المحبين حيث يقول :

فما امر بربع لا اسائله ولا بذات خمار لا تريق دمي

وحيث يقول : ما لاح برق او ترنم طائر الا انثنيت ولي فؤاد شيق

وحيث يقول على التعميم :

فالثغر والنحر والمخلخل — والمعصم دائي والفاحم الرجل

وهكذا لا يمر بربع الا وقف يسأل قطينه اين ذهبوا وماذا جرى لهم ولا يرى ذات خمار الا استدفّ جمالها من وراء خمارها فشعر انهُ يموت حباً وهو ما كنى عنهُ باراقة دمه كما انهُ يصبو لكل برق يلوح وطائر يترنم وانما داؤه حب الثغر والنحر والمخلخل وسائر الاعضاء الجميلة ومظاهرها فأين تذهب بهذا تلك المحبوبة المنفردة التي يخلصها بعاطفته ويقف عليها صبوته لذلك نرى المتنبي يفرط في التغزل بالنساء عامة وبالحسان مجتمعات كقوله :

الراميات لنا وهنّ نوافر والخاتلات لنا وهنّ غوافل

وقوله أيضاً : لبسنَ الوشيَ لا متجملات ولكن كي يصنّ به الجمالا

وضفّرنَ الغدائر لا لحسن ولكن خفنَ في الشعر الضلالا

وقوله وهو في درجة لا تدانى من الابداع :

ديار اللواتي دارهنّ عزيزة بطول القنا يحفظنَ لا بالتمائم

حسان التثني ينقش الوشي مثله اذا مسنَ في اجسامهنّ النواعم

ويبسمنَ عن درّ تقلدنَ مثله كأنّ التراقي وشّحت بالمباسم

وفي البيت الثاني صورة يعجز عن ابرازها أكثر الواصفين . وان الشعر الذي يؤيد هذه النظرية متوافر في الديوان كل التوافر. على ان من كان ملتهب العاطفة كثير التعمق في هذا النحو لا يبعد ولا يستغرب ان تستعبده احدى الجميلات ولو حيناً فتشعره بنار العشق التي تقلقل الضلوع . ولعل المتنبي وقع في العشق واكتوى بناره أيام شبابه الاول على الاقل وقبل اتصاله بسيف الدولة . لانهُ لا يمكن للعبقرية مهما عظمت ان تدل صاحبها على شعور لم يحسهُ فلا بد ان يحس به ولو قليلاً لان تحسيسه من طريق الخيال لا يستقيم الى الحد الذي يستقيم به من وراء الاحساس وكل صاحب فن لا تتطرق الصورة او العاطفة الى فنه الاّ عن طريق حواسه . غير ان العبقرية هي التي تجعله يحلل شعوره ويدرس خلق النساء في تفكير وتأمل . ولم يكن المتنبي في ادبه صاحب فن فحسب بل هو مفكر نافذ البصيرة ثاقب النظر الى الحياة يحيط بها من شتى جوانبها . وامهُ قد وقعت له حادثة غرام واحدة تضاف الى تعمقه في التمدق جعلتهُ يصف أخلاق النساء على نحو ما قال :

اذا غدرت حسناء وفت بعهدها فمن عهدها ان لا يدوم لها عهد
وان عشقت كانت اشد صبابة وان فركت فاذهب فما فركها قصد
وان حقدت لم يبق في قلبها رضى وان رضيت لم يبق في قلبها حقد
كذلك اخلاق النساء وربما يضل بها الهادي ويخفى بها الرشد
ولكن حبًّا خامر القلب في الصبي يزيد على مرّ الزمان ويشتد

ولا شك ان هذه الابيات تشعر بشيء من القسوة في الحكم مرجعهُ الى العصر والبيئة وما عدا هذا فانهُ فيها من تفهم طبيعة المرأة ما تبقى حقيقته ما بقيت هذه الطبيعة . على انهُ في البيت الاخير مرارةً ولوعةً لا يحس بهما الاّ من جرب مثل ذلك الحب الذي خامر القلب في الصبي ولم يزده مرّ الزمان الاّ اشتداداً على الرغم مما خبره من تلك الاخلاق التي وصفها . وانما نعرف ما نعرف عن كبرياء المتنبي وتعاظمه حتى قال عن نفسه

تغرب لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً الاّ لخالقه حكما

وقال كثيراً غير هذا في معرض القوة والجبروت فاذا به في معرض الحب يقول :

تذلل لها واخضع على القرب والنوى فما عاشق من لا يذل ويخضع

فلا ريب ان شعوراً مفرطاً بالحاجة الى استرضاء حبيبة بعينها افهمه ان الخضوع حبا لا يعد هواناً وجعله يحرص كل الحرص على انهُ يدعي عاشقاً ويقول معتذراً :

وعذلت اهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق

ولا يني في الاعراب عن خوالج صدره بالذهاب في صحة عاطفته الى اقصى غايات الوصف التي لا يوفق اليها الاّ من ذاق واختبر وهداه اختباره الى استنباط الدقائق الخفية واستكناه خفيات المشاعر النفسية كقوله

جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي فاصبح لي عن كل شغل بها شغل

وقوله أيضاً : قد كنت أشفق من دمعي على بصري فاليوم كل عزيز بعدكم هانا

وقوله في موقف الوداع : تنفست عن وفاء غير منصدع يوم الرحيل وشعب غير ملتئم

قبلتها ودموعي مزج أدمعها وقبلتني على خوف فماً لفم

ولقد تركت تلك القبل في فمه أثراً تناولته شاعريته الكبيرة فوضعته موضع التشبيه البارع حيث قال :

للهو آونة تمرّ كأنها قبل يزودها حبيب راحل

قال كثيراً من هذا الشعر الغزلي الصادق الذي يتدفق من صميم النفس والقلب. وقد ظن المتنبي أن العاشق يجب أن يكون نحيلاً فقال في صباه :

كفى بجسمي نحولاً أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

فاذا به يعجب بهذا المعنى جداً والمرء معجب ببنات افكاره حتى لو كان المتنبي لذلك عاد الى نظمه ثانياً

ولو قلم ألقيت في شق رأسه من السقم ما غيرت في خط كاتب

وعاد فنظمه ثالثاً : وبليتي فقد السقام لأنهُ قد كان لما كان لي أعضاء

ونظمه رابعاً بإضافة شيء على المعنى :

دون التعانق ناحلين كشكلتي نصب أدقهما وضم الشاكل

وكرر معنى صدر هذا البيت خامساً :

حلت دون المزار فاليوم لو زرت لحال النحول دون العناق

وهكذا بقي المتنبي شغوفاً بمعناه هذا يبالغ به في وصف النحول وصفاً يخرجهُ عن المعقول بل هو من الاغراق المرغوب عنهُ . وهو في جملته لا يخرج عن قول ابن أبي ربيعة :

وتقلبت في الفراش وما تعلم الا انظنون أين مكاني

ولا شك أن المتنبي وضع معناه وضعاً ولم يقتبسهُ اقتباساً وإلاّ لما أفرط في الاعجاب به حتى كرره أيضاً وهو يهجو ابن كيغلغ لما ورد الخبر بأن غلمانه قتلوه فقال :

سائلوا قاتليه كيف مات لهم موتاً من الضرب أم موتاً من الفرق

وأين موقع حد السيف من شبح بغير جسم ولا رأس ولا عنق

ويصح أن نسمي البيت الأخير من الخيال المستحيل على أنه وفق مرة واحدة الى وضع هذا المعنى في موضعه الصحيح حين صرفه الى وصف الموت فاستقام في قوله :

وما الموت الا سارق دق شخصه يصول بلا كف ويسعى بلا رجل

ولم يفت المتنبي تعريف الحب ونشأته وحالاته وكيف يطغى على العقل ويغلب العاطفة على الفكر ويقتل الارادة فقال :

وما هي الاّ لحظة بعد لحظة اذا نزلت في قلبه رحل العقل

وقال : ومن يعشق يلذ لهُ الغرام . وقال في باب التعريف :

الحب ما منع الكلام الألسنا ... وألذ شكوى عاشق ما أعلنا

ويعتبر هذا البيت من ادق الملاحظات النفسية المتوافرة في الديوان . وقد اشتط بعض النقاد حينما وهم ان في البيت تنافراً معنوياً اذ زعم ان الحب منع اللسان من الكلام وان الشكوى لا تعلن الا بالكلام الذي منعهُ الحب فكيف يكون ذلك . على ان هذا الاعتراض لا يؤبه لهُ اذا علمنا ان العاشق الصادق يذهل في مواقف الغرام ويختبل حتى لا ينبس بحرف وهذا معنى صدر البيت ثم انه لا بد لهُ ان يشكو فاذا اعلن شكواه شعر بلذة غريبة قريبة من بعض اللذة التي يحدثها الالم وهذا معنى عجز البيت . وفي تناقض العشق والعقل يقول المتنبي

يا عاذل العاشقين دع فئة ... أضلها الله كيف ترشدها

ويقول ايضاً : ال مَ طاعية العاذل ... ولا رأي في الحب للعاقل

هذا هو موقف المتنبي من العشق والغزل الى السنة الاولى التي لحق بها بسيف الدولة . ومن ثم بدأ عند سيف الدولة حياة جديدة تقتضيه التسامي بنفسه عن كل شائبة . صوناً لكبريائه بين منافسيه فصرنا حينئذٍ نسمع مثل هذا السؤال الانكاري : أ كل اديب قال شعراً متيم . . . وصار غزله صناعياً الا اصداء بعيدة تتجاوب في نفسه لتلك العواطف الزاخرة التي تدفقت في شعره الاول كقوله :

وكيف التذاذي بالاصائل والضحى ... اذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبّا

ذكرت بهِ وصلاً كأنْ لم افز بهِ ... وعيشاً كأني كنت اقطعهُ وثبا

ومثل قوله وهو يسيل حناناً : اذا زلتم ثم لم ابككم ... بكيت على حبي الزائل

ومثل قوله ايضاً : لعينك ما يلقى الفؤاد وما لقي ... وللحب ما لم يبق مني وما بقي

ولا بد هنا من الاشارة الى افتتان المتنبي بجمال العينين لوفرة ذكرها في شعره فهل كان ذلك مصادفة شعرية ام هو افتتن بذات عينين جميلتين انطبعت صورتهما في قرارة صدره حتى قال

عزيز اسىً من داؤه الحدق النجل ... عياء به مات المحبون من قبل

وقال : وعيون المها ولا كعيون ... فتكت بالمتيم المعمود

وقال : وفتانة العينين قتالة الهوى ... اذا نفحت شيخاً روائحها شبا

وفي القصيدة التي ساق مطلعها الى هذا الاستشهاد على السؤال يقول :

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ... ولكن من يبصر جفونك يعشق

ويقول في وصف العيون مبدعاً :

ادرن عيوناً حائرات كأنها ... مركبة احداقها فوق زئبق

ويقول ايضاً : ألم يرَ هذا الليل عينيك رؤيتي ... فتظهر فيه رقة ونحول

ولما اكتهل قال متغزلاً وهو صادق :

افسدت بيننا الامانات عيناها ... وخانت قلوبهنَّ العقول

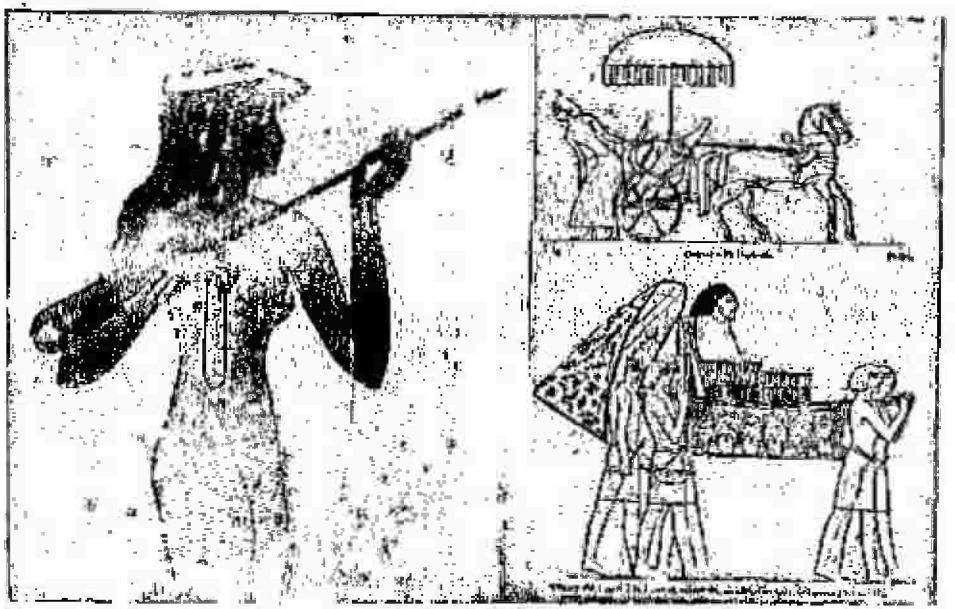

مظلتان من المظلات التي كان قدماء
المصريين يستعملونها والعليا منهما
شبيهة بالمظلات الحديثة

عازفة العود
رسم على جدار قبر في الأقصر
من عهد المملكة الحديثة

وقد اشار الى ان الجمال اكثر ما يكون في العينين حيث قال :

الحسن يرحل كلما رحلوا معهم وينزل حيثما نزلوا
في مقلتيْ رشاءٍ تديرهما بدوية فتنت بها الحلل

وما احسن قوله : كل جريح ترجى سلامته الاّ فؤاداً رمته عيناها

ثم ان المتنبي لما لزم سيف الدولة طفق يبعد بنفسه عن كل ما يخشى ان ينعكس عليه سوء فهمه فلم يعد يكثر من ذكر الغرام والهيام كأنهُ يريد تفهيم سيف الدولة ان نفسه لا تشغله اليوم عنه كما كانت تشغله من قبل عن سواه وان همه ان يرضيه ويظهر لدنه بمظهر الرجل الكبير الذي يستحق الامتيازات التي حصل عليها منهُ . انهُ لا يقبل الارض بين يديه ولا ينشده الشعر واقفاً ويتقاضاه كذا الوفاً على قصائد معدودة فهو جدير بكل احترام على الرغم من ان حرفة الشعر لم تكن ابداً تسمو بصاحبها الى المعالي وعلى هذا شرع المتنبي يصف نفسه بالعفة والتصون كقوله :

يرد يداً عن ثوبها وهو قادر ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد
وهل يشتفي من لاعج الشوق في الحشا محب لها في قربها متباعد

بل هو ذهب الى ابعد من ذلك فنبذ استهلال القصيدة بالغزل على طريقة اسلافه من الشعراء وصار يدخل مباشرةً في موضوعه والشواهد عديدة على ذلك :

— اعلى الممالك ما يبنى على الاسل — على قدر اهل العزم تأتي العزائم
— اذا كان مدح فالنسيب المقدم — بغيرك راعياً عبث الذئاب
— لكل امرىءٍ من دهره ما تعودا — عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم
— طوال قنا تطاعنها قصار — غيري باكثر هذا الناس ينخدع

وعشرات غير هذه من القصائد التي لا ذكر للغزل فيها البتة . وانتفخت اوداج ابي الطيب كبرياء لما علت مرتبته وانتشر اسمه في الاقطار ولقي من سيف الدولة بالغ الحفاوة والاجلال فتطورت آراؤه في النساء تطوراً عجيباً حتى صارت الانوثة شبه مسبة عنده فهو يعتذر عن ام سيف الدولة انها انثى

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير فخرٌ للهلال

ولا يقولنَّ احد ان المتنبي اراد في البيت الثاني ان يساوي بين التذكير والتأنيث وانما ساقهُ للموقف الى هذا التشبيه بعد ان قرر في البيت الاول تفضيل الرجال على النساء . وجاء بعدئذٍ يقول ان التأنيث ليس عيباً . ومعنى ذلك انهُ ليس بعيب اذا كانت ام سيف الدولة انثى ولكنهُ عيب في سواها . . وبلغت قلة الذوق بالمتنبي وهو مسوق بآرائه هذه انهُ لم يستنكف حين عزّى سيف الدولة فيما بعد بفقد اختهِ الصغرى ان يقول له :

وإذا لم تجد من الناس كفئاً ذات خدر ارادت الموت بعلا

وذهب الى أبعد من ذلك فقرر ان شيمة النساء الغدر وان الدنيا غادرة فهي تشبه النساء. ولعلَّ هذا الشبه جعل لفظ الدنيا مؤنثاً . فقال والضمير عائد الى الدنيا :

وهي معشوقة على الغدر لا تحـــفظ عهداً ولا تتمم وصلا
شيم الغانيات فيها فما أدري لذا أنّث اسمها الناس ام لا

فالتأنيث والغدر ونقض العهد كل هذا واحد في نظر المتنبي . وقد لزمته هذه الفكرة في الثواني الى آخر عمره فصار لا ينظر الى المرأة الاَّ انها أداة لهو واستمتاع وصار غزله مادّيًّا بحتاً حينما عاد في ابان اكتهاله الى الغزل كقوله :

ولا ليـلة قصرتهـا بطـويلة أطالت يدي في جيدها صحبة العقد

وقوله : شامية طالما خلوت بها تبصر في ناظري محياها
فقبلت ناظري تغالطني وانما قبلت به فاها

وقوله ايضاً وهو قبيح : عد وأعدها حبذا تلك الصق ثدي بثديها الناهد

ولو لم تكن نفسيت حيوية المتنبي لما قال :

فما حرمت حسناء بالهجر غبطـةً ولا بلغتها من شكا الهجر بالوصل

كل هذا وقع له وهو كهل في السنوات القصيرة التي قضاها بعد يأسه من التصون والتعفف ولكنه كان قد قساعوده وجفت عواطفه واصبح لا يستلذ بالحالة التي تلجلج النطق وتذهل العقل بل صار يطلب الموقف المثير والمفعل الوثير بل صار يعكس مواقف الغرام فيجعل المرأة تقبله وتستبيه ولم يعد طلب الوصل رجاء بل اغراء فلسفيًّا مزيجاً من اللذة والتنكير بفناء الدنيا والقارىء المتأني يعجب كل الاعجاب بهذين البيتين :

زوّدينا من حسن وجهك مادام فحسن الوجوه حالٌ تحول
وصلينا نصلك في هذه الدنيا فان المقام فيها قليل

على انهُ بعد انفصاله عن سيف الدولة ولحاقه بكافور لزم في مصر حيال كافور خطته مع سيف الدولة في الانصراف عن الغزل . ولا نرى المتنبي تغزّل في مصر الاَّ مرة واحدة حينا وازن بين الحضريات والبدويات في قصيدته التي مطلعها

من الجآذر في زي الاعاريب حمر الحلي والمطايا والجلابيب

اما قصيدته التي يقول فيها : ولكن قلبي يا ابنة القوم قلب . فقد دعا حسناءهُ ابنة القوم وفاقاً لعادة عربية قديمة تنادي بها المرأة هكذا استدراجاً لها بأن طاقوماً تمتّ بهم فجعل نفسه غريباً عنها وفيها يقول

احنُّ الى قومي واهوى لقاءهم وأين من المشتاق عنقاء مغرب

وهل اشرف من عاطفة الحنين الى الاهل فالمتنبي يقف في مصر مواقف مشرفة لان رأسه تغلي بأطماعه المعروفة وكافور يطاوله ويمنيه واذا جاز الافتراض قلنا لعلَّ كافوراً اوعز من باب السياسة الى

بعض اشياعه ان يعير المتنبي بتطلعه الى النساء ومعاقرة الخمر دفعاً عن اطاعه ولعل التهمة قرعت سمع المتنبي والا فما معنى ان يدلل طويلاً بعفته واباته واجتنابه للخمر ويذكر هاتين الخلتين متفخراً فيقول

وغير فؤادي للغواني رمية وغير بناني للزجاج ركاب

ثم يشفق ان يتهم بالضعف في موضوع الحسان فيقول :

وللخود مني ساعة ثم بيننا فلاة الى غير اللقاء تجاب

وراح يسلك في تعريف العشق مسلكا لا يتفق مع ما سبق له في قصائده السالفة فزعم ان العشق غرور وطمع حيث قال :

وما العشق الا غرة وطماعة يعرض قلب نفسه فيصاب

وصار يقول ايضاً : يحب العاقلون على التصافي وحب الجاهلين على الوسام

فيجمع بين الحب والعقل بعد ان أشاد طويلاً بالتفريق بينهما وينسب الجهل الى عشاق الجمال وانكى من هذا قوله

مما اضرَّ بأهل العشق انهم هووا وما عرفوا الدنيا ولا فطنوا

تفنى عيونهم دمعاً وانفسهم في إثر كل قبيح وجهه حسن

كأن كل عاشق جاهل وكل جميل الوجه قبيح النفس وكأنه لم يكن يحب اهل العشق هؤلاء الذين يرميهم بالجهل وهو الذي قال :

وما انا الا عاشق كل عاشق اعق خليليه الصفيين لائمه

وقد يتزيا بالهوى غير اهله ويستصحب الانسان من لا يلائمه

وهو الذي قال : ضروب الناس عشاق ضروبا فاعذرهم اشفهم حبيبا

اجل لم يكن المتنبي ليجسر على الجهر باطماعه عند سيف الدولة ونحن نعرف ما كان عليه من الشجاعة والفروسية والعزة والسطوة بل هو من قومه بني حمدان في سياج من الامراء والقواد ممن لا يجوز للمتنبي ان يفكر في تخطيهم الى ملك او امارة . ولكن الحالة في مصر غير الحالة في حلب وكافور عبد اسود اغتصب ملك سيده وتصدر لتصريف شؤون البلاد والعباد وليس له قوم يرتكز على عصبيته فيهم وقد الحَّ في استدعاء المتنبي ليرفع به جاهه ويدل به على غيره من الملوك فلا ضير على المتنبي اذا طلب الولاية والامارة وهو لن يتخطى اليها احداً من اهل كافور الاقربين وسواء في حلب او في مصر فان المتنبي لزم خطته في التغني بمناقبه الرفيعة واخصها بعده عن النساء وترفعه عنهن ولكن بعد ان هرب من مصر ولحق ببني بويه وقد انهارت آماله واخفقت مساعيه عاد الى الغزل واطلق لنفسه العنان في صدر قصائده على السيرة القديمة المألوفة ولكنهُ كان قد تجاوز سن العشق فجاء غزله ماديًا كما اسلفنا وظلت المرأة كما صورتها له كبرياؤه بعد طور الصبا

ومن العجيب ان يذهب المتنبي ضحية امرأة هجاها فأحش فقتله اخوها . وهذا منتهى سخرية الاقدار !